من الجاهلية إلى الإسلام

لسماحة الأستاذ السيد أبي الحسن الندوي

www.abulhasanalinadwi.org

المركز الإسلامي
جنيف - سويسرا

من الجاهلية إلى الإسلام

لسماحة الأستاذ السيد أبي الحسن الندوي

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

-١-

منهج الأنبياء في الإصلاح والانقلاب

العالم الذي واجهه محمد صلى الله عليه وسلم :

بعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزا عنيفا ، فاذا كل شيء فيه في غير محله ، فمن أثاثه ومتاعه ما تكسر ، ومنه ما التوى وانعطف ، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكانا آخر ، ومنه ما تكدس وتكوم . نظر الى العالم بعين الانبياء فرأى انسانا قد هانت عليه انسانيته ، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر ، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر . رأى انسانا معكوسا قد فسدت عقليته ، فلم تعد تسيغ البديهيات ، وتعقل الجليات ، وفسد نظام فكره ، فاذا النظري عنده بديهي وبالعكس ، يسترب في موضع الجزم ، ويؤمن في

موضع الشك . وفسد ذوقه فصار يستحلي المر ويستطيب الخبيث ، ويستمرىء الوخيم ، وبطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم ، ولا يحب الصديق الناصح . رأى مجتمعا هو الصورة المصغرة للعالم ، كل شيء فيه غير شكله او في غير محله ، قد اصبح فيه الذئب راعيا ، والخصم الجائر قاضيا ، واصبح المجرم فيه سعيدا حظيا ، والصالح محروما شقيا . لا انكر في هذا المجتمع من المعروف ، ولا اعرف من المنكر . ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية ، وتسوقها الى هوة الهلاك . رأى معاقرة الخمر الى حد الادمان ، والخلاعة والفجور الى حد الاستهتار ، وتعاطي الربا الى حد الاغتصاب واستلاب الاموال . ورأى الطمع وشهوة المال الى حد الجشع والنهامة ، ورأى القسوة والظلم الى حد الواد وقتل الاولاد . رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولا ، وعباد الله خولا ، ورأى أحبارا ورهبانا اصبحوا اربابا من دون الله ، يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

رأى المواهب البشرية ضائعة او زائفة لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح ، فعادت وبالا على أصحابها وعلى الانسانية ، فقد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية ، والجود تبذيرا واسرافا ، والانفة حمية جاهلية ، والذكاء شطارة وخديعة ، والعقل وسيلة لابتكار الجنايات ، والابداع في ارضاء الشهوات .

www.abulhasanalinadwi.org

رأى أفراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظ بصانع حاذق ، ينتفع بها في هيكل الحضارة ، وكألواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة .

رأى الامم قطعانا من الغنم ليس لها راع ، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه ، والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه ، ويجرح به أولاده واخوانه .

نواحي الحياة الفاسدة :

وان كل ناحية من نواحي هذه الحياة الفاسدة تسترعي اهتمام المصلح وتشغل باله ، فلو كان رجل من عامة رجال الاصلاح لتوفر على اصلاح ناحية من نواحيها، وظل طول عمره يعالج عيبا من عيوب المجتمع ويعانيه ، ولكن نفسية الانسان معقدة التركيب دقيقة النسج كثيرة المنافذ والابواب ، خفية التخلص والتنصل ، وانها اذا زاغت او اعوجت لا يؤثر فيها اصلاح عيب من عيوبها وتغيير عادة من عاداتها ، حتى يغير اتجاهها من الشر الى الخير ومن الفساد الى الصلاح ، وتقتلع جرثومة الفساد من النفس البشرية التي قد تنبت بفساد المجتمع واختلال التربية كما تنبت الحشائش الشيطانية في ارض كريمة ، وتحسم مادة الشر ويغرس فيها حب الخير والفضيلة ومخافة الله عز وجل .

وكل داء من أدواء المجتمع الانساني وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلب اصلاحه حياة كاملة ، ويستغرق عمر انسان بطوله ، وقد يستغرق اعمار طائفة من المصلحين ولا يزول ، فاذا ذهب أحد يطارد الخمر في بلاد قد نشأت على حياة الترف والبذخ ودانت باللهو واللذة ، أعياه أمرها وحبطت جهوده ، لان شرب الخمر ليس الا نتيجة نفسية تعشق اللذة حتى في السم، وتبتغي النشوة حتى في الاثم، فلا تهجره بمجرد الدعاية والنشر والكتب والخطب وبيان مضاره الطبية ومفاسده الخلقية ، وبسن القوانين الشديدة والعقوبات الصارمة (١) .. لا تهجره الا بتغيير نفسي عميق ، واذا أرغمت على تركه بغير هذا التغيير تسللت الى غيره من

(١) منعت حكومة امريكا الخمر ، وطاردتها في بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها ويقدرون ما انفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولار وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ بلايين صفحة ، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاما لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه ، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس وسجن ٥٣٢٣٣٥ نفس ، وبلغت الغرامات الى ١٦ مليون جنيه وصادرت من الاملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون واربعة ملايين جنيه ، ولكن كل ذلك لم يزد الامة الامريكية الا غراما بالخمر وعنادا في تعاطيها ، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣م الى سحب هذا القانون واباحة الخمر في مملكتها اباحة مطلقة « من كتاب تنقيحات ، للسيد ابي الاعلى المودودي » .

www.abulhasanalinadwi.org

أنواع الجريمة أو استباحته بتغيير الاسماء والصور .

لم يكن الرسول رجلا اقليميا او زعيما وطنيا :

وكان مجال العمل في بلاد العرب فسيحا اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم رجلا اقليميا وسار في قومه سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين ، كان له أن يعقد للامة العربية لواء تنضم اليه قريش والقبائل العربية ، ويكون امارة عربية قوية موحدة يكون رئيسها، ولا شك أن ابا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وغيرهما كانوا في مقدمة من ينضم الى هذا اللواء القومي ، ويقاتلون تحته ويقلدونه الزعامة . اما كانوا يشهدون بصدقه وأمانته ؟ اما حكموه في أكبر حادث من حوادث حياتهم المكية ومنحوه أكبر شرف ، اذ حكموه في وضع الحجر الاسود في مكانه من البيت ؟ اما قالوا له على لسان عتبة ، وهم ما عرفوا الاغراء السياسي : « ان كنت انما بك الرياسة عقدنا الويتنا لك فكنت راسا ما بقيت » (٢) ، واذا صار له ذلك كان يمكنه ان يرمي الدولة الفارسية بفرسان العرب وشجعانهم ، وينتصر للعروبة المهضومة ، وينتصر من العجم الظالمين ، ويغرز علم الفتح العربي والمجد القومي على هضاب الروم وفارس ، واذا

(٢) البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ص ٤٣ ج ٣ .

لم يكن من حكمة السياسة ان يناجز احدى الامبراطوريتين في ذلك الحين، فكان يمكنه ان يغير على اليمن او الحبشة وجارة اخرى ويضمها الى الامارة العربية الوليدة .

وكانت في الحياة العربية نواح اجتماعية واقتصادية كثيرة تحتاج الى حنكة سياسي وكفاية اداري وعزيمة عصامي وابتكار عبقري ، فلو قيض لها رجل من هؤلاء الرجال لكان للعرب شأن كبير وتاريخ جديد .

لم يبعث لينسخ باطلا بباطل :

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يبعث لينسخ باطلا بباطل ، ويبدل عدوانا بعدوان ، ويحرم شيئا في مكان ويحله في مكان آخر ، ويبدل أثرة أمة بأثرة أمة اخرى ، لم يبعث زعيما وطنيا او قائدا سياسيا ، يجر النار الى قرصه ويصغي الاناء الى شقه ، و خرج الناس من حكم الفرس والرومان الى حكم عدنان وقحطان . وانما أرسل الى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، انما أرسل ليخرج عباد الله جميعا من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ويخرج الناس جميعا من ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم

www.abulhasanalinadwi.org

عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم .

فلم يكن خطابه لامة دون أمة ووطن دون وطن ، ولكن كان خطابه للنفس البشرية وللضمير الانساني ، وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق من يبدأ به مهمته الاصلاحية وجهاده العظيم ، وكانت ام القرى والجزيرة العربيةلموقعها الجغرافيواستقلالها السياسي خير مركز لرسالته ، وكانت الامة العربية بخصائصها النفسية ومزاياها الادبيـة خير محل لدعوته وخير داعية لرسالته .

قفل الطبيعة البشرية ومفتاحها :

ولم يكن صلى الله عليه وسلم من عامـة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها ، او يتسللون اليها من نوافذها ، ويكافحون بعض الادواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب ، فمنهم من يوفق لازالة بعضها مؤقتا في بعض نواحي البلاد ، ومنهم مـن يموت ولم ينجـح في مهمته (٣)

أتى النبي صلى الله عليه وسلم بيت الدعوة والاصلاح من بابه ، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ، ذلك القفل المعقـد الذي أعيا فتحـه جميـع

المصلحين في عهد الفترة وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه . ودعا الناس الى الايمان بالله وحده ، ورفض الاوثان والعبادات ، والكفر بالطاغوت بكل معاني الكلمة وقام في القوم ينادي : « يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا ! » ودعاهم الى الايمان برسالته ، والايمان بالآخرة .

(٣) ان غاندي الزعيم الهندي الكبير هدف من أول حياته السياسية والروحية الى مبدأين عظيمين حصر فيهمـا زعامته السياسية وشخصيته الروحية القوية النادرتين في هذا العصر جعلهما شعارا لمبدئه : الاول : « لا عنف ولا مقاومة » وقـد دعا الى هذا المبدأ كديانة وفلسفة ، وظل سنين طوالا يدعو اليه بخطبه ومقالاته وصحفه ، واستنفد في ذلك جهوده . ولما لم يكـن ذلك عن طريق التغيير النفسي وعن طريق الدعوة الدينية الاساسية لم تؤثر دعوته في نفسية أمته تأثيرا عميقا ، وقد جعلت هذه الامة دعوته هبـاء منثورا في الاضطرابات الطائفية العظيمة التي وقعت في بنجاب الشرقية ودهلى عاصمة الهند في سبتمبر واكتوبر سنة ١٩٤٧ م التي قتل فيها من المسلمين اكثر من نصف مليون ، وكانت مجزرة هائلة وقع فيها من القسوة والهمجية والاعتداء على الاطفال والنساء والاعراض ما لا يكاد يصدقه المؤرخون المتأخرون ، حتى انتهت باغتيال هذا الرجل العظيم الذي بلغت به أمته حد التقديس والتأليه .

والمبدأ الثاني : نسخ اللمس المنبوذ ، ولم ينجح في مهمته هذه كذلك نجاحا يعتد به ، فكان ذلك برهانا ساطعا على ان طريق الانبياء هو الطبيعي الصحيح في الاصلاح والتغيير .

www.abulhasanalinadwi.org

-٢-

رحلة المسلم من الجاهلية الى الاسلام

دفاع الجاهلية عن نفسها :

ما اخطأ المجتمع الجاهلي فهم هذه الدعوة ومراميها ، وما غم على اهله امرها ، وادركوا عندما قرع اسماعهم صوت النبي صلى الله عليه وسلم ان دعوته الى الايمان بالله وحده سهم مسدد الى كبد الجاهلية ونعي لها ، فقامت قيامة الجاهلية ودافعت عن تراثها دفاعها الاخير ، وقاتلت في سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت ، واجلبت على الداعي صلى عليه وسلم بخيلها ورجلها ، وجاءت بحدها وحديدها : « وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد » ووجد كل ركن من أركان هذه الحياة ومن اثافي الجاهلية في صميمها وفي مقتلها ، وثبت النبي صلى تحدث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب ، وكان ذلك آية توفيق النبي صلى الله عليه وسلم لانه أصاب الفرض ، وضرب على الوتر الحساس ، واصاب الجاهلية في صميمها وفي مقتلها ، وثبت النبي صلى

الله عليه وسلم على دعوته ثبوتا دونه ثبوت الراسيات، لا يثنيه أذى ، ولا يلويه كيد ، ولا يلتفت الى اغراء ، ويقول لعمه : « يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الامر حتى يظهره الله أو اهلك في طلبه (٤) » .

في سبيل الدين الجديد :

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة حجة يدعو الى الله وحده والايمان برسالته واليوم الآخر في كل صراحة ، لا يكني ولا يلوح ولا يلين ، ولا يستكين ولا يحابي ولا يداهن ، ويرى في ذلك دواء لكل داء ، وقامت قريش وصاحوا به من كل جانب ، ورموه عن قوس واحدة ، واضرموا البلاد عليه نارا ليحولوا بينه وبين أبنائهم واخوانهم ، فأصبح الايمان به والانحياز اليه جد الجد ، لا يتقدم اليه الا جاد مخلص هانت عليه نفسه ، وعزم على أن يقتحم لاجله النيران ، ويمشي اليه ولو على حسك السعدان ، فتقدم فتية من قريش لا يستخفهم طيش الشباب ، ولا يستهويهم مطمع من مطامع الدنيا ، انما همهم الآخرة وبغيتهم الجنة ، سمعوا مناديا ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فضاقت عليهم الحياة الجاهلية بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وقلقت

---

(٤) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

بهم مضاجعهم ، فكأنهم على الحسك ، وراوا انهم لا يسعهم الا الايمان بالله ورسوله فآمنوا وتقدموا الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو في بلدهم وبين سمعهم وبصرهم ، فكانت رحلة طويلة شاقة لما اقامت قريش بينه وبين قومه من عقبات ، ووضعوا أيديهم في يديه ، واسلموا انفسهم وارواحهم اليه ، وهم من حياتهم على خطر ، ومن البلاء والمحنة على يقين ، سمعوا القرآن يقول : « أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » وسمعوا قوله تعالى : « أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ الا ان نصر الله قريب » فما كان من قريش الا ما توقعوه ، قد نثرت كنانتها ، واطلقت عليهم كل سهم من سهامها ، فما زادهم كل هذا الا ثقة وتجلدا وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما » ولم يزدهم هذا البلاء والاضطهاد في الدين الا متانة في عقيدتهم وحمية لدينهم ومقتا للكفر واهله ، واشعالا لعاطفتهم وتمحيصا لنفوسهم فأصبحوا كالتبر المسبوك واللجين الصافي ، وخرجوا من كل محنة وبلاء خروج السيف بعد الجلاء .

التربية الدينية :

هذا والرسول صلى الله عليه وسلم يغذي

أرواحهم بالقرآن ويربي نفوسهم بالايمان ، ويخضعهم أمام رب العالمين خمس مرات في اليوم عن طهارة بدن وخشوع قلب وخضوع جسم وحضورعقل ، فيزدادون كل يوم سمو روح ونقاء قلب ونظافة خلق وتحررا من سلطان الماديات ومقاومة للشهوات ونزوعا الى رب الارض والسماوات ، ويأخذهم بالصبر على الاذى والصفح الجميل وقهر النفس، لقد رضعوا حب الحرب وكأنهم ولدوا مع السيف ، وهم من امة من ايامها حرب بسوس وداحس والغبراء ، وما يوم الفجار ببعيد . ولكن الرسول قهر طبيعتهم الحربية ويكبح نخوتهم العربية ، ويقول لهم : « كفوا أيديكم واقيموا الصلاة » فانقهروا لامره وكفوا ايديهم وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس في غير جبن وفي غير عجز ، ولم يسجل التاريخ حادثة دافع فيها مسلم في مكة عن نفسه بالسيف مع كثرة الدواعي الطبيعية الى ذلك وقوتها ، وذلك غاية ما روى في التاريخ من الطاعة والخضوع ، حتى اذا تعدت قريش في الطغيان وبلغ السيل الزبى اذن الله لرسوله ولاصحابه بالهجرة ، وهاجروا الى يثرب وقد سبقهم اليها الاسلام .

في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم :

والتقى اهل مكة بأهل يثرب ، لا يجمع بينهم الا الدين الجديد ، فكان أروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ ، وكان الاوس والخزرج لم ينفضوا عنهم غبار

www.abulhasanalinadwi.org

حرب بعاث ، ولا تزال سيوفهم تقطردما ، فألف الاسلام بين قلوبهم ، ولو انفق احد مـا في الارض جميعا مـا الف بين قلوبهم ، ثم آخى رسول الله صلى الله عليـه وسلم بينهم وبين المهاجرين ، فكانت اخوة تزري بأخوة الاشقاء ، وتبذ كل ما روى فـي التاريـخ من خـلة الاخـلاء .

كانت هذه الجماعة الوليدة ـ المؤلفة من أهل مكة المهاجرين وأهل يثرب الانصار ـ نواة للامـة الاسلامية الكبيرة التي اخرجت للناس ومـادة للاسلام ، فكـان ظهور هذه الجماعة في هذه الساعة العصيبة وقايـة للعالم من الانحلال الذي كان يهدده ، وعصمة للانسانية من الفتن والاخطار التي احدقت بها ، لذلك قال اللـه تعالى لما حض على الاخـوة والالفـة بين المهاجريـن والانصار : « الا تفعلوه تكن فتنة فـي الارض وفسـاد كبير » .

انحلت العقدة الكبرى :

ولم يزل الرسول صلى الله عليـه وسلم يربيهم تربية دقيقة عميقة ، ولـم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكي جمرة قلوبهم ، ولم تزل مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم تزيدهم رسوخا في الدين وعزوفا عن الشهوات ، وتفانيا في سبيل المرضاة وحنينـا الـى

الجنة ، وحرصا على العلم وفقها فـي الدين ومحاسبة للنفس ، يطيعون الرسول في المنشط والمكره ، وينفرون في سبيل الله خفافا وثقالا . قد خرجوا مـع الرسول للقتال سبعا وعشرين مرة في عشر سنين ، وخرجـوا بأمره لقتال العدو أكثر من مائةمرة ، فهان عليهم التخلي عن الدنيا وهانت عليهم رزيئة اولادهـم ونسائهم فـي نفوسهم،ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه ولم يتعودوه، وبكل ما يشق على النفس اتيانه فيالمال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا لامتثـال امرهـا ، وانحلت العقدة الكبرى ـ عقدة الشرك والكفر ـ فانحلت العقد كلها وجاهدهم الرسول جهاده الاول فلـم يحتج الـى جهاد مستأنف لكل امر ونهـي ، وانتصر الاسلام علـى الجاهلية في المعركة الاولى ـ فكـان النصر حليفه في كل معركة ، وقد دخلوا في السلـم كافـة بقلوبهـم وجوارحهم وارواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول مـن بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد مـا أمـر أو نهى . حدثـوا الرسول عما اختانوا أنفسهم ، وعرضوا اجسادهم للعذاب الشديـد اذا فرطـت منهم زلـة استوجبت الحد ـ نزل تحريم الخمر والكئوس المتدفقة على راحاتهم ، فحال امر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والاكباد المتقدة ، وكسرت دنـان الخمر فسالت فـي سكك المدينة .

www.abulhasanalinadwi.org

حتى اذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم ، وانصفوا من انفسهم انصافهم من غيرهم ، واصبحوا في الدنيا رجال الاخرة وفي اليوم رجال الغد ، لا تجزعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة ولا تستخفهم قوة ، ولا يريدون علوا في الارض ولا فسادا ، واصبحوا للناس القسطاس المستقيم ، قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسهم او الوالدين والاقربين . وطأ لهم أكناف الارض واصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم وداعية الى دين الله ، واستخلفهم الرسول صلى الله عليه وسلم في عمله ولحق بالرفيق الاعلى قرير العين من أمته ورسالته .

أغرب انقلاب وقع في تاريخ البشر :

لقد كان هذا الانقلاب الذي احدثه صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين وبواسطتهم في المجتمع الانساني اغرب ما وقع في تاريخ البشر ، وقد كان هذا الانقلاب غريبا في كل شيء : كان غريبا في سرعته، وكان غريبا في عمقه وكان غريبا في سعته وشموله ، وكان غريبا في وضوحه وقربه الى الفهم ، فلم يكن غامضا ككثير من الحوادث الخارقة للعادة ، ولم يكن لغزا من الالغاز . فلندرس هذا الانقلاب عمليا ،

ولنتعرف مدى تأثيره في المجتمع الانساني والتاريخ البشري .

تأثير الايمان الصحيح في الاخلاق والميول :

كان الناس عربا وعجما يعيشون حياة جاهلية ، يسجدون فيها لكل ما خلق لاجلهم ويخضع لارادتهم وتصرفهم ، لا يثيب الطائع بجائزة ولا يعذب العاصي بعقوبة ولا يأمر ولا ينهى ، فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم ، ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ، ولا تأثير لها في اخلاقهم واجتماعهم . كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لاناس خلع عليهم خلعة الربوبية . فأخذوا بأيديهم أزمة الامر وتولوا ادارة المملكة وتدبير شئونها وتوزيع ارزاقها ، الى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة ، فكان ايمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية ، وكان ايمانهم بالله واحالتهم خلق السماوات والارض الى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يقال له : من بنى هذا القصر العتيق ؟ فيسمي ملكا من الملوك الاقدمين من غير ان يخافه ويخضع له ، فكان دينهم عاريا عن الخشوع لله ودعائه ، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه اليهم ، فكانت معرفتهم مبهمة غامضة ، قاصرة مجملة ، لا تبعث في نفوسهم هيبة ولا محبة .

وهذه الفلسفة اليونانية قد عرفت بواجب الوجود

www.abulhasanalinadwi.org

في سلوب ليست فيها صفة مثبتة من صفات القدرة والربوبية والاعطاء والمنع والرحمة . ولم تثبت له الا الخلق الاول ، ونفت عنه الاختيار والعلم والارادة ، ونفت الصفات وقررت كليات كلها حط من قدر الخالق وقياس على الخلق ، والسلوب اذا اجتمعت لم تفد فائدة ايجاب واحد ، ولم نعلم مدنية واحدة ولا مجتمعا ولا نظاما ولا عملا ولا بناية قامت على مجرد سلوب ، فتجردت الديانة في اوساط الفلسفة الاغريقية عن روح الخشوع والاستكانة لله والالتجاء اليه في الحوادث ومحبته بكل القلب ، وهكذا فقدت الديانة السائدة على العالم روحها واصبحت طقوسا وتقاليد واشباحا للايمان .

انتقل العرب والذين اسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة الى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ، ذات تأثير في الاخلاق والاجتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها ، آمنوا بالله الذي له الاسماء الحسنى والمثل الاعلى ، آمنوا برب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارىء المصور ، العزيز الحكيم الغفور الودود الرؤوف الرحيم ، له الخلق والامر ، بيده ملكوت كل شيء ، يجير ولا يجار عليه ، الى آخر ما جاء في القرآن من وصفه ، يثيب

بالجنة ويعذب بالنار ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء في السماوات والارض ، ويعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، الى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه ، فانقلبت نفسيتهم بهذا الايمان الواسع العميق الواضح انقلابا عجيبا ، فاذا آمن احد بالله وشهد أن لا اله الا الله انقلبت حياته ظهرا لبطن ، تغلغل الايمان في احشائه وتسرب الى جميع عروقه ومشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلا غير الرجل ، وظهر منه من روائع الايمان واليقين والصبر والشجاعة ومن خوارق الافعال والاخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الاخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه الى الابد ، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الايمان الكامل العميق .

وخز الضمير :

وكان هذا الايمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة ارادة وقوة نفس ومحاسبتها والانصاف منها ، وكان اقوى وازع عرفه تاريخ الاخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ، حتى اذا جمحت السورة البهيمية في حين من الاحيان وسقط الانسان سقطة ، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون

www.abulhasanalinadwi.org

تحول هـذا الايمان نفسا لوامة عنيفة ووخـزا لاذعـا للضمير وخيالا مروعا ، لا يرتاح معه صاحبـه حتـى يعترف بذنبه امام القانون ، ويعرض نفسـه للعقوبـة الشديدة ويتحملها مطمئنا مرتاحـا تفاديا من سخط الله وعقوبـة الاخـرة .

وقد حدثنا المؤرخون الثقات في ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها الا في التاريخ الاسلامي الديني . فمنها ما روى مسلم بن الحجـاج القشيري صاحب الصحيح بسنده عن عبدالله بن بريدة عن ابيـه ان ماعز بن مالك الاسلمي ، اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله اني ظلمت نفسي وزنيت واني اريد ان تطهرني » فرده ، فلما كان من الغد اتـاه فقال : « يـا رسول الله اني قـد زنيت » فرده الثانيـة ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسـلم الـى قومـه فقال : أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا ؟ فقالوا : ما نعلمه الا وفي العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتـاه الثالثـة فأرسل اليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه انه لا بأس بـه ولا بعقله ، فلما كانت الرابعـة حفر له حفرة ثم امـر فرجم .

قال فجاءت الغامدية فقالت : « يا رسول الله اني قد زنيت فطهرني » وانه ردها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تردني ؟ لعلك ان تردنـي كما رددت ماعزا ، فو الله اني لحبلى . قال : اما لا فاذهبي حتى

تلدي . قال : فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة قالت : هذا قد ولدته . قال : « فاذهبـي فأرضعيـه حتـى تطعميه . فلما فطمته اتتـه بالصبـي فـي يده كسرة خبز ، فقالت : « هذا يا نبي الله قد فطمته وقد اكـل الطعام . فدفع الصبي الى رجل من المسلمين ، ثم امر فحفر لها الـى صدرها وامـر النـاس فرجموهـا ، فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسهـا فنضـح الدم على وجه خالد فسبها ، فسمع نبي اللـه سبـه اياها فقال : « مهلا يا خالد ، فوالـذي نفسي بيـده لقد تابت توبـة لو تابهـا صاحب مكس لغفر لـه » . ثـم امر بها فصلى عليها ودفنت (٥) .

الثبات امام المطامع والشهوات :

وكان هذا الايمان حارسـا لامانة الانسان وعفافه وكرامته ، يملك نفسه النزع أمام المطامـع والشهوات الجارفة وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراها احـد ، وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف احدا ، وقد وقع في تاريخ الفتح الاسلامي من قضايا العفاف عند المغنم واداء الامانات الـى اهلهـا والاخلاص للـه مـا يعجز التاريخ البشري عن نظائره ، وما ذاك الا نتيجـة رسوخ الايمان ومراقبة اللـه واستحضار علمه في كـل مكان

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الحدود .

www.abulhasanalinadwi.org

وزمـــان .

حدث الطبري قال : لما هبط المسلمـون المدائـن وجمعوا الاقباض اقبل رجل بحق معـه فدفعه الـى صاحب الاقباض ، فقال والذين معه : مـا رأينا مثـل هذا قط ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربـه . فقالوا : هل أخذت منه شيئا ؟ فقال : اما والله لولا الله مـا اتيتكم بـه . فعرفوا ان للرجل شأنا ، فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله لا اخبركم لتحمدونـي ولا غيركم ليقرظونـي ، ولكني احمد الله وارضى بثوابه فاتبعـوه رجلا حتـى انتهى الى أصحابه فسأل عنه فاذا هو عامر بـن عبـد قيـس (٦) .

الانفة وكبر النفس :

وكأن هذا الايمان بالله رفع راسهم عاليا وأقـام صفحة عنقهم فلن تحنى لغير الله أبدا ، لا لملك جبـار ولا لحبر من الاحبار ولا لرئيس ديني ولا دنيوي ، وملأ قلوبهم وعيونهم بكبرياء الله تعالـى وعظمتـه ، فهانت فيها وجوه الخلق وزخارف الدنيا ومظاهـر العظمـة والفخفخة ، فاذا نظروا الى الملوك وحشمتهم وما هـم فيه من ترف ونعيم وزينة وزخرف فكأنهم ينظرون الى

(٦) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٦ .

صور ودمى قد كسيت ملابس الانسان .

عن أبي موسى قال : انتهينا الى النجاشي وهـو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين ، وقد قال له عمرو وعمارة : انهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك . فقال جعفر : لا نسجد الا لله (٧) .

الاستهانة بالزخارف والمظاهر الجوفـاء :

ارسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامـر رسولا الى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهـم ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحريـر ، وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينـة العظيمـة ، وعليـه تاجه وغير ذلك من الامتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقـة وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبهـا حتى داس بها علـى طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائـد وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا لـه : ضع سلاحـك ، فقال انـي لم آتكم وانمـا جئتكم حين دعوتموني فان تركتمونـي هكذا والا رجعـت . فقال

(٧) البداية ج ٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها . فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام .

الشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة :

ولقد بعث الايمان بالآخرة في قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة وحنينا غريبا الى الجنة واستهانة نادرة بالحياة ، تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأي عين ، فطاروا اليها طيران حمام الزاجل لا يلوي على شيء .

تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب الكعبة ، اني أجد ريحها من دون أحد ، قال انس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بسيف او طعنة برمح او رمية بسهم ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون ، فما عرفه احد الا اخته ببنانه (٨) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : قوموا الى جنة عرضها السماوات والارض ، فقال عمر

(٨) متفق عليه .

بن الحمام الانصاري : يا رسول الله جنة عرضها السماوات والارض . قال : بخ بخ ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال: لا والله يا رسول الله الا رجاء ان اكون من اهلها. قال : فانك من أهلها . فاخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن انا حييت حتى آكل تمراتي هذه انها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل (٩) .

عن أبي بكر بن أبي موسى الاشعري قال : سمعت أبي رضي الله عنه وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان ابواب الجنة تحت ظلال السيوف ، فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا ؟ قال : نعم . فرجع الى أصحابه فقال : اقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه الى العدو فضرب حتى قتل (١٠) .

وكان عمرو بن الجموح اعرج شديد العرج ،وكان له اربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غزا ، فلما توجه الى «احد» اراد ان يتوجه معه فقال له بنوه : ان الله قد جعل لك رخصة فلو

(٩) رواه مسلم .

www.abulhasanalinadwi.org

قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ان بني هؤلاء يمنعونني ان اخرج معك ، ووالله اني لارجو ان استشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اما انت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : وما عليكم ان تدعوه لعل الله عز وجل ان يرزقه الشهادة ، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل يوم احد شهيدا (١١) .

قال شداد بن الهاد : جاء رجل من الاعراب الى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض اصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فقسمه ، وقسم للاعرابي فأعطى اصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه اليه فقال : ما هذا ؟ قالوا : قسم قسمه لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذه فجاء به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا يا رسول الله؟ قال : قسم قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن ارمى هاهنا ــ واشار الى حلقه ــ بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ،

(١٠) رواه مسلم .
(١١) زاد المعاد ج ٣ ص ١٣٥ .

فقال : ان تصدق الله ليصدقك ، ثم نهضوا الى قتال العدو فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقتول فقال : أهو هو ؟ قالوا : نعم ، قال : صدق الله فصدقه (١٢) .

من الانانية الى العبودية :

وكانوا قبل هذا الايمان في فوضى من الافعال والاخلاق والسلوك والاخذ والترك والسياسة والاجتماع، لا يخضعون لسلطان ولا يقرون بنظام ولا ينخرطون في سلك ، يسيرون على الاهواء ويركبون العمياء ويخبطون خبط عشواء ، فأصبحوا الان في حظيرة الايمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك والسلطان والامر والنهى،ولانفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا من أنفسهم المقادة واستسلموا للحكم الالهي استسلاما كاملا ووضعوا أوزارهم ، وتنازلوا عن أهوائهم وانانيتهم ، واصبحوا عبيدا لا يملكون مالا ولا نفسا ولا تصرفا في الحياة الا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يحاربون ولا يصالحون الا باذن الله ولا يرضون ولا يسخطون ولا يعطون ولا يمنعون ولا يصلون ولا يقطعون الا باذنه ووفق امره .. ولما كان القوم يحسنون اللغة التي نزل بها القرآن وتكلم بها

(١٢) زاد المعاد ج ٣ ص ١٩٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

الرسول صلى الله عليه وسلم وعرفوا الجاهلية ونشأوا عليها ، عرفوا معنى الاسلام معرفة صحيحة ، وعرفوا أنه خروج من حياة الى حياة ، ومن مملكة الى مملكة ، ومن حكم الى حكم ، او من فوضوية الى سلطة ، او من حرب الى استسلام وخضوع ، ومن الانانية الى العبودية ، واذا دخلوا في الاسلام فلا افتيات في الرأي ولا نزاع مع القانون الالهي ولا خيرة بعد الامر ولا مشاقة للرسول ولا تحاكم الى غير الله ولا اصدار عن الرأي ، ولا تمسك بتقاليد وعادات ولا ائتمار بالنفس ، فكانوا اذا اسلموا انتقلوا من الحياة الجاهلية بخصائصها وعاداتها وتقاليدها الى الاسلام بخصائصه وعاداته واوضاعه ، وكان هذا الانقلاب العظيم يحدث على اثر قبول الاسلام من غير تأن .

هم فضالة بن عمير بن الملوح ان يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : افضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله ! قال : ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال : لا شيء ، كنت اذكر الله. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : استغفر الله ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئا احب الي منه ، قال فضالة : فرجعت الى اهلي فمررت بامرأة كنت اتحدث اليها ، فقالت : هلم

الى الحديث ، فقلت : يأبى الله عليك والاسلام (١٣) .

المحكمات والبينات في الالهيات :

وقد كان الانبياء عليهم السلام اخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وافعاله ، وعن بداية هذا العالم ومصيره ، وما يهجم عليه الانسان بعد موته ، وأتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفوا بدون تعب ، وكفوهم مؤونة البحث والفحص في علوم ليس عندهم مباديها ولا مقدماتها التي يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا الى مجهول ، لان هذه العلوم وراء الحس والطبيعة ، لا تعمل فيها حواسهم ، ولا يؤدي اليها نظرهم ، وليست عندهم معلوماتها الاولية .

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة واعادوا الامر جذعا ، وابدوا البحث انفا وبدأوا رحلتهم في مناطق مجهولة لا يجدون فيها مرشدا ولا خريتا ، وكانوا في ذلك اكثر ضلالا ، وأشد تعبا واعظم اشتغالا بالفضول من رائد لم يقتنع بما ادى اليه العلم الانساني في الجغرافية ، وما حدد وضبط في الخرائط على تعاقب الاجيال ، فحاول ان يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحار من جديد ، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه على قصر عمره ، وضعف قوته ، وفقدان آلته ،

(١٣) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٢ .

www.abulhasanalinadwi.org

فلم يلبث ان انقطعت به مطيته وخانته عزيمته ، فرجع بمذكرات واشارات مختلة ، وكذلك الذين خاضوا في الالهيات من غير بصيرة ، وعلى غير هدى ، جاءوا في هذا العلم بآراء فجة ، ومعلومات ناقصة ، وخواطر سانحة ، ونظريات مستعجلة ، فضلوا واضلوا .

وكذلك منحهم الانبياء عليهم السلام مبادىء ثابتة ومحكمات هي أساس المدنية الفاضلة ، والحياة السعيدة في كل زمان ومكان ، فحرموها على تعاقب الاعصار ، فبنوا مدنيتهم على شفا جرف هار ، واساس منهار ، وعلى قياس واختبار ، فزاغ أساس المدنية وتداعى بناؤها ، وخر عليهم السقف من فوقهم .

وكان الصحابة رضي الله عنهم سعداء موفقين جدا ، اذ عولوا في ذلك كله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكفوا المئونة وسعدوا بالثمرة ، ووفروا ذكاءهم وقوتهم وجهادهم في غير جهاد ، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فيما يعنيهم من الدين والدنيا وتمسكوا بالعروة الوثقى ، وأخذوا في الدين بلب اللباب .

-٣-

المجتمع الاسلامي

طاقة زهر :

ان هذا الايمان بالله والرسول واليوم الآخر والاسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة ، ورد كل فرد في المجتمع البشري الى موضعه ، لا يقصر عنه ولا يتعداه ، واصبحت الهيئة البشرية طاقة زهر لا شوك فيها . اصبح الناس أسرة واحدة أبوهم آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي الا بالتقوى ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن اهون على الله تعالى من الجعلان » (١٤) ، ويسمعه الناس يقول : « يا أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بر تقي كريم على الله تعالى ،

---

(١٤) تفسير ابن كثير ، سورة الحجرات .

www.abulhasanalinadwi.org

ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى (١٥) » ، ويقول : « ان انسابكم هذه ليست لمنسبة على أحد ، كلكم بنو آدم ، طف الصاع لم يمنعوه ، ليس لاحد على أحد فضل الا بدين وتقوى (١٦) » ، وعن أبي ذر رضي الله عنه ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « انظر فانك لست بخير من أحد ولا أسود ، الا ان تفضله بتقوى الله » ، ويسمعه الناس يقول فيما يناجي به ربه في آخر الليل : « وانا شهيد ان العباد كلهم اخوة (١٧) .

ليس منا من دعا الى عصبية :

واقتلع صلى الله عليه وسلم جذور الجاهلية وجراثيمها، وحسم مادتها ، وسد كل نافذة من نوافذها ، فقال : « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية (١٨) »، وعن جابر بن عبدالله قال : «كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار ، فقال الانصاري : يا للانصار . فقال المهاجري : يا للمهاجرين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دعوها انها منتنة» (١٩) وحرم

(١٥) رواه ابن أبي حاتم .
(١٦) رواه الامام احمد .
(١٧) رواه ابو داود :
(١٨) رواه ابو داود .
(١٩) رواه البخاري .

حمية الجاهلية ، وقيد ذلك التناصر الذي جرت الجاهلية العربية على اطلاقه ، فكان من الامثال الثائرة وشرائع الجاهلية الثابتة : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » قال النبي صلى عليه الله وسلم : « من نصر قومه على غير الحق ، فهو كالبعير الذي ردى فهو ينزع بذنبه » (٢٠) ، وتغيرت بذلك نفسية العربي وعقليته حتى أصبح ذوق المسلم العربي لا يسيغ ذلك المثل العربي السائر ، فلما قال النبي صلى الله عليه وسلم مرة : « انصر أخاك ظالما او مظلوما » لم يملك نفسه ، فقال : « يا رسول الله هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما ؟ » ، قال صلى الله عليه وسلم : تمنعه من الظلم فذاك نصرك اياه (٢١) .

كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته :

وأصبحت الطبقات والاجناس في المجتمع الاسلامي متعاونة متعاضدة لا يبغي بعضها على بعض ، فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم ، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، لهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وأصبح كل واحد في المجتمع راعيا ومسئولا

(٢٠) تفسير ابن كثير .
(٢١) حديث متفق عليه .

www.abulhasanalinadwi.org

عن رعيته ، الامام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في اهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته (٢٢) ، وهكذا كان المجتمع الاسلامي مجتمعا رشيدا عاقلا مسئولا عن أعماله .

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

واصبح المسلمون اعوانا على الحق ، أمرهم شورى بينهم ، يطيعون الخليفة ما اطاع الله فيهم ، فان عصى الله فلا طاعة له عليهم ، واصبح شعار الحكم : « لا طاعة لمخلوق فى معصيةالخالق» (٢٣) واصبحت الاموال والخزائن التي كانت طعمة للملوك والامراء ودولة بين الاغنياء مال الله الذي لا ينفق الا في وجهه ولا يخرج الا في حقه وأصبح المسلمون مستخلفين فيه ، والخليفة كولي اليتيم ان استغنى استعف وان افتقر أكل بالمعروف ، وأصبحت الارض التي اغتصبها الملوك والامراء يفسحونها لمن يشاءون ، و ضيقونها على من يشاءون ، ويقطعها بعضهم بعضا كما يقطع الثوب ، أصبحت أرض الله التي من ظلم قيد شبر منها طوقه من سبع ارضين .

---

(٢٢) حديث متفق عليه .
(٢٣) متفق عليه .

حلول الرسول محل الروح والنفس من المجتمع :

وكان المجتمع البشري قد فقد نشاطه واريحيته في الحياة وفي كل ما يأتي ويذر ، وكان مجتمعا مرهقا مخنوقا ، فكان مدفوعا الى ساحة الحرب من غير ان ينشط او يتحمس لاغراض اولي الامر ، وكان مدفوعا الى الصلح ولم يقض من الحرب وطرا ولم يشف نفسه ، وكان الرجال في هذا المجتمع يرغمون على التضحية والايثار ومكابدة المتاعب ومعاناة الامور الشاقة من غير هوى ومن غير وجدان ومن غيرعاطفة ، لا يحبون القادة ولا يحبهم القادة فكانوا مرغمين على ان يطيعوا من لا يحبونه ويفدوا بأرواحهم وأموالهم من يبغضونه ، فانطفأت جمرة القلوب وبردت العواطف ونشأ الناس على النفاق والرياء والختل ، ونشأت النفوس على الذل وتحمل الضيم والصغار .

كانت العاطفة القوية ـ التي يرجع اليها الفضل في غالب عجائب الانسانية ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، تلك التي يسميها الناس « الحب » ـ تائهة ضائعة ، لم يظهر منذ قرون من يشغلها ويستثمرها، فضاعت في الوان الجمال الزاهية والمظاهر الخلابة الفانية مما تغنى به الشعراء قديما وحديثا .

في هذا المجتمع الحائر المظلوم قام محمد صلى الله عليه وسلم فحل عقاله وفك اساره ثم حل منه محل

www.abulhasanalinadwi.org

الروح والنفس وشغل منه مكان القلب والعين ، وهو البشر الذي جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال وأبلغ معاني الحسن والاحسان ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم ار قبله ولا بعده مثله ، فاندفع اليه الحب الصادق كما يندفع الماء الى الحدور ، وانجذبت اليه النفوس والقلوب انجذاب الحديد الى المغناطيس ، كأنما كان من القلوب والارواح على ميعاد ، وأحبه رجال امته واطاعوه حبا وطاعة لم يسمع بمثلها في تاريخ العشاق والمتيمين ، ووقع من خوارق الحب والتفاني في سبيل طاعته وايثاره على النفس والاهل والمال والولد ما لم يحدث قبله ولن يحدث بعده .

نوادر الحب والتفاني :

وطىء ابو بكر بن أبي قحافة في مكة يوما بعد ما أسلم وضرب ضربا شديدا ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من انفه ، وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب حتى ادخلوه منزله ولا يشكون في موته ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لامه ام الخير : انظري أن تطعميه شيئا او تسقيه اياه ، فلما خلت به

الحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: والله مالي علم بصاحبك. فقال : اذهبي الى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه. فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : ان ابا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله . قالت : ما اعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وان كنت تحبين ان اذهب معك الى ابنك ذهبت ، قالت : نعم . فمضت معها حتى وجدت ابا بكر صريعا دنفا ، فدنت ام جميل واعلنت بالصياح وقالت : والله ان قوما نالوا هذا منك لاهل فسق وكفر ، واني لارجو ان ينتقم الله لك منهم . قال : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : هذه أمك تسمع ! قال : فلا شيء عليك منها قالت : سالم صالح ! قال : أين هو ؟ قالت : في دار ابن الارقم ، قال فان الله على ان لا اذوق طعاما ولا اشرب شرابا او آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأمهلتا حتى اذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكىء عليهما حتى ادخلتاه على رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢٤) .

وخرجت امرأة من الانصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيرا هو بحمد الله كما تحبين ! قالت أرنيه حتى انظر

(٢٤) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

اليه . فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل (٢٥) .

رفعوا خبيبا رضي الله عنه على الخشبة ونادوه يناشدونه : أتحب أن محمدا مكانك ؟ قال : لا والله العظيم ما أحب ان يفديني بشوكة يشاكها في قدمه فضحكوا منه (٢٦)

وقال زيد بن ثابت : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لي : ان رأيته فأقرئه مني السلام وقل له يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تجدك ؟ قال فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح وضربة سيف ورمية بسهم ، فقلت : يا سعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام ويقول لك : اخبرني كيف تجدك ، فقال : على رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام . قل له : يا رسول الله أجد ريح الجنة وقل لقومي الانصار لا عذر لكم عند الله ان خلص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته (٢٧) .

وترس أبو دجانة يوم أحد على رسول الله صلى

(٢٥) رواه ابن اسحاق امام المغازي ورواه البيهقي مرسلا .
(٢٦) البداية والنهاية ج ٤ ص ٦٣ .
(٢٧) زاد المعاد ج ٢ ص ١٣٤ .

الله عليه وسلم بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك (٢٨) . ومص مالك الخدري جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انقاه قال له : مجه . قال : والله ما أمجه أبدا (٢٩) .

وقدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه ، فقال : يا بنية ما ادري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني . قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وانت رجل مشرك نجس (٣٠) .

قال عروة بن مسعود الثقفي لاصحابه بعدما رجع من الحديبية : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ، على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم اصحاب محمد محمدا ، والله ان تنخم نخامة الا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، واذا امرهم ابتدروا أمره ، واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، واذا تكلم خفضوا اصواتهم عنده ، وما يحدون اليه النظر تعظيما له (٣١) .

(٢٨) أيضا ص ١٣٠ .
(٢٩) أيضا ص ١٣٦ .
(٣٠) سيرة ابن هشام ، ذكر الاسباب الموجبة للمسير الى مكة .
(٣١) زاد المعاد ج ٣ ص ١٢٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

عجائب الانقياء والطاعة :

ولم يزل الانقياد والطاعة من جنود « الحب » المتطوعة ، فلما أحبه القوم بكل قلوبهم أطاعوه بكل قوتهم ، يمثل ذلك خير تمثيل ما قال سعد بن معاذ عن نفسه وعن الانصار قبل بدر : « اني اقول عن الانصار واجيب عنهم فاظعن حيث شئت وصل حبل من شئت واقطع حبل من شئت وخذ من اموالنا ما شئت واعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب الينا مما تركت وما أمرت فيه من امر فأمرنا تبع لامرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك (٣٢)» .

وكان من شدة طاعتهم له صلى الله عليه وسلم انه صلى الله عليه وسلم نهى اهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فما كان من الناس الا ان اطاعوه واصبحت المدينة لهؤلاء كأنها مدينة الاموات ليس بها داع ولا مجيب . يقول كعب : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لي نفس الارض فما هي الارض التي أعرف ، الى ان قال : حتى اذا طال علي من جفوة المسلمين مشيت حتى

(٣٢) أيضا ص ١٣٠ .

تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس الي فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت له : يا أبا قتادة انشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيني وتوليت حتى تسورت الجدار (٣٣) .

وكان من طاعته أيضا وهو في موضع عتاب وجفوة ان رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه ويقول له: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك ان تعتزل امرأتك فقال : أطلقها ام ماذا أفعل ؟ فقال : لا بل اعتزلها فلا تقربنها . فقال لامرأته : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله من هذا الامر (٣٤) .

وكان من حبه للرسول صلى الله عليه وسلم وايثاره على كل أحد في الدنيا ان ملك غسان يخطب وده ويستلحقه بنفسه ، وتلك محنة عظيمة في حال الجفوة والعتاب ولكنه يرفض ذلك قال : « بينما انا امشي في سوق المدينة اذا نبطي من نبط اهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلني على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له الي حتى جاءني فدفع الي كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا فقرأته فاذا فيه : اما بعد فانه قد بلغنا ان صاحبك قد جافاك ولم

(٣٣ ، ٣٤) متفق عليه .

www.abulhasanalinadwi.org

يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها (٣٥) .

ومن غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ما حدث عند نزول النهي عن الخمر في مجلس شرب ، فعن أبي بريدة عن أبيه قال : بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة اذ قمت حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر : (يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان) ــ الى قوله : (فهل أنتم منتهون) . فجئت الى أصحابي فقرأتها عليهم الى قوله : (فهل أنتم منتهون) . قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضا وبقي بعض في الاناء ، فقال بالاناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ، ثم صبوا في باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا . انتهينا ربنا (٣٦) .

ومن غرائب الطاعة للرسول وايثاره على النفس والاهل والعشيرة ما روى عن عبد الله بن عبد الله بن أبي ، روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عبد الله

(٣٥) متفق عليه .

(٣٦) رواه ابن جرير بسنده في التفسير عند قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا انما الخمر ...) الآية ، تفسير الطبري ج ٧ .

بن أبي قال : الا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول بأبي انت وأمي ؟ قال : يقول لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل . فقال : فقد صدق والله يا رسول الله انت والله الاعز وهو الاذل ، اما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وان أهل يثرب ليعلمون ما بها احد ابر مني ، ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لاتيتهما به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ! فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف ثم قال : أنت القائل لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ، اما والله لتعرفن العزة لك او لرسول اللهصلى الله عليهوسلم ، والله لايأويك ظله ولاتأويه ابدا الا باذن من الله ورسوله. فقال: يا للخزرج ، ابني يمنعني بيتي ، يا للخزرج ابني يمنعني بيتي !! فقال : والله لا يأويه ابدا الا باذن منه . فاجتمع اليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخله الا باذن من الله ورسوله . فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال: اذهبوا اليه فقولوا له خله ومسكنه. فأتوه فقال : اما اذا جاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم فنعم (٣٧) .

(٣٧) تفسير الطبري ج ٢٨ .

www.abulhasanalinadwi.org

-٤-

كيف حوّل الرسول خامات الجاهلية الى عجائب الانسانية

بهذا الايمان الواسع العميق والتعليم النبوي المتقن ، وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة وبشخصيته الفذة وبفضل هذا الكتاب السماوي المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا تخلق جدته بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الانسانية المحتضرة حياة جديدة . عمد الى الذخائر البشرية وهي أكداس من المواد الخام لا يعرف احد غناءها ، ولا يعرف محلها وقد اضاعتها الجاهلية والكفر والاخلاد الى الارض فأوجد فيها باذن الله الايمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة ، وأثار من دفائنها واشعل مواهبها ، ثم وضع كل واحد في محله فكأنما خلق له ، وكأنما كان المكان شاغرا لم يزل ينتظره ويتطلع اليه ، وكأنما كان جمادا فتحول جسما ناميا وانسانا متصرفا ، وكأنما كان ميتا لا يتحرك فعاد حيا يملي على العالم ارادته ، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائدا بصيرا يقود الامم : (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله

في الظلمات ليس بخارج منها) .

عمد الى الامة العربية الضائعة والى أناس من غيرها فمما لبث العالم أن راى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهروسوانح التاريخ ، فأصبح عمر الذي كان يرعى الابل لابيه الخطاب وينهره ، وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة ، ولا يتبوأ منها المكانة العليا ، ولا يحسب له اقرانه حسابا كبيرا ، اذا به يفجأ العالم بعبقريته وعصاميته ، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما ويؤسس دولة اسلامية تجمع بين ممتلكاتهما وتفوقهما في الادارة وحسن النظام فضلا عن الورع والتقوى والعدل الذي لا يزال فيه المثل السائر . وهذا ابن الوليد كان احد فرسان قريش الشبان انحصرت كفاءته الحربية في نطاق محلي ضيق يستعين به رؤساء قريش في المعارك القبلية فينال ثقتهم وثناءهم ، ولم يحرز الشهرة الفائقة في نواحي الجزيرة اذا به يلمع سيفا الهيا لا يقوم له شيء الا حصده ، وينزل كصاعقة على الروم و ترك ذكرا خالدا في التاريخ . وهذا أبو عبيدة كان موصوفا بالصلاح والامانة والرفق ويقود سرايا المسلمين اذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء ويلقي عليها نظرة الوداع ويقول : سلام على سورية سلاما لا لقاء بعده . وهذا عمرو بن العاص كان يعد من عقلاء قريش وترسله في سفارتها الى الحبشة تسترد المهاجرين

www.abulhasanalinadwi.org

المسلمين فيرجع خائبا اذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة . وهذا سعد ابن أبي وقاص لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الاسلام كقائد جيش ورئيس كتيبة اذا به يتقلد مفاتيح المدائن وينيط باسمه فتح العراق وايران . وهذا سلمان الفارسي كان ابن موبذان في احدى قرى فارس لم يزل يتنقل من رق الى رق ومن قسوة الى قسوة اذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الامبراطورية الفارسية التي كان بالامس أحد رعاياها ؛ وأعجب من ذلك أن هذه الوظيفة لا تغير من زهادته وتقشفه فيراه الناس يسكن في كوخ ويحمل على رأسه الاثقال . وهذا بلال الحبشي يبلغ من فضله وصلاحه مبلغا يلقبه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد . وهذا سالم مولى أبي حديفة يرى فيه عمر موضعا للخلافة يقول : لو كان حيا لاستخلفته . وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين الى مؤتة وفيه مثل جعفر بن ابي طالب وخالد بن الوليد ، ويقود ابنه أسامة جيشا فيه مثل ابي بكر وعمر . وهذا ابو ذر والمقداد وابو الدرداء وعمار بن ياسر ومعاذ بن جبل وابي بن كعب تهب عليهم نفحة من نفحات الاسلام فيصبحون من الزهاد المعدودين والعلماء الراسخين . وهذا علي بن ابي طالب وعائشة وعبد الله بن مسعود وزيدبن ثابت وعبد الله بن عباس قد اصبحوا في احضان النبي الامي صلى الله عليه وسلم من علماء العالم يتفجر العلم من جوانبهم وتنطق

الحكمة على لسانهم ، ابر الناس قلوبا واعمقهم علما واقلهم تكلفا ، يتكلمون فينصت الزمان ، ويخطبون فيسجل قلم التاريخ .

كتلة بشرية متزنة :

ثم لا يلبث العالم المتمدن ان يرى من هذه المواد الخام المبعثرة التي استهانت بقيمتها الامم المعاصرة وسخرت منها البلاد المجاورة ، لا يلبث ان يرى منها كتلة لم يشاهد التاريخ البشري احسن منها اتزانا ، كأنها حلقة مفرغة لا يعرف طرفها او كالمطر لا يدرى اوله خير ام آخره ، كتلة فيها الكفاية التامة في كل ناحية من نواحي الانسانية ، كتلة هي في غنى عن العالم ، وليس العالم في غنى عنها ، وضعت مدنيتها وأسست حكومتها وليس لها عهد بها ، فلم تضطر الى ان تستعير رجلا من أمة او تستعين في ادارتها بحكومة ، أسست حكومة تمد رواقها على رقعة متسعة من قارتين عظيمتين ، وملأت كل ثغر وسدت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية والديانة والقوة والامانة ، تأسست هذه الحكومة المتشعبة الاطراف فأنجدتها هذه الامة الوليدة التي لم يمض عليها الا بعض العقود — كله جهاد ودفاع ومقاومة وكفاح — برجل من الرجال الاكفاء ، فكان منها الامير العادل والخازن الامين والقاضي المقسط ، والقائد العابد والوالي المتورع والجندي المتقي ، وكانت بفضل

www.abulhasanalinadwi.org

التربية الدينية التي لا تزال مستمرة وبفضل الدعـوة الاسلامية التي لا تزال سائرة ، مادة لا تنقطع ومعينـا لا ينضب ، لا تزال تسند الحكومة برجال يرجحون جانب الهداية على الجباية ، ولا يزالون يجمعون بين الاصلاح والكفاية ، وهنا ظهرت المدنيـة الاسلاميـة بمظهرها الصحيح ، وتجلت الحياة الدينية بخصائصها التي لم تتوفر لعهد من عهود التاريخ البشري .

لقد وضع محمـد صلى الله عليم وسلم مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب ، أصاب الجاهلية في مقتلها وصميمها ، فأصمى رميته ، وأرغـم العالم العنيد بحول اللهعلى ان ينحو نحوا جديدا ويفتتح عهدا سعيدا، ذلك هو العهد الاسلامي الذي لا يزال غرة فـي جبين التاريخ .

www.abulhasanalinadwi.org